

تأليف

الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود

رئيس المحاكم الشرعية والشئون الدينية

بدولة قطر


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الإصلاح والتعديل

فيما طرأ على اسم اليهود والنصارى من التبديل

تأليف

الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود

رئيس المحاكم الشرعية والشئون الدينية

بدولة قطر


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

مقـدمة

الحمد لله ، أما بعد : فإن هذه الرسالة الوجيزة تبحث عن قضية لها تعلق بالعقيدة الشرعية وهي قضية الوقوف على حقيقة عقيدة بني إسرائيل ، وهل هم الآن وجود يسمون بهذا الاسم أم لا وجود لهم ، لأنهم حين ما يسأل عنهم سائل يقول له أكثر الناس وبعض العلماءهم اليهود لظنهم أن تسميتهم بإسرائيل منطبقة عليهم حقيقة ومعنى هذا الاعتقاد خطأ فما هم بإسرائيل ولا بني إسرائيل منهم قد انفصلوا بكفرهم عن بني إسرائيل في زمن بني اسرائيل ، كانفصال إبراهيم الخليل عن أبيه آذر ، لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه والكفر يقطع الموالاة والنسب بين المسلمين والكافرين ، كما حكى الله – سبحانه – عن نبيه نوح لمـــا قال : إن ابني من أهلي ، أي وقد وعدتني بأن تنجي وأهلي ، فقال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، ومن المعلوم أن بني إسرائيل في أصلهم ونشأتهم كانوا مسلمين وإن كان كفر منهم من كفر ، أما اليهود فهم اليهود إسما ورسماً من زمن بني إسرائيل إلى حـــد الآن ويلحق بهم كل من انتحل بعقيدتهم من شتى الأمم ، إذ ليس كلهم قد انفصلوا عن بني إسرائيل .

وإن أشد ما نحاذره ونتقيه من قلب اسم اليهود إلى اسم إسرائيل هو أن بني إسرائيل في ابتداء نشأتهم مسلمون وقد أكثر القرآن الكريم من ذكرهم وأن الله فضلهم على العالمين في زمانهم ، وجعل فيهم أنبياء وجعل فيهم ملوكاً وأتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، وهذا الفضل والتفضيل إنما تحصلوا عليه لما كانوا متمسكين بالدين وطاعة رب العالمين ، ثم إنها تقطعت وحدة بني إسرائيل وذابوا بين الأمم ، كما قال – سبحانه – : « وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » ، فلم يبق لبني إسرائيل باقية تذكر بهذا الاسم .

وبطول الزمان يخشى أن ينخدع الناس بتسمية اليهود باسم إسرائيل ، فينسبون لهم جميع الفضائل والصفات الحسنة المنسوبة لبني إسرائيل لما كانوا مسلمين، ثم يزول عن اليهود اسمهم الحقيقي الذي هو عقيدتهم والمتضمن لذمهم وضلالهم ، فيبقي هـذا الأسم الحقيقي بمثابة اللقب الذي يستقبح النطق به ، وهذا حاصل ما جري النصح بموجبه ، والله الموفق للصواب .

المـؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ومن همزات الشياطين .

أما بعد : فإن من واجب العالم العامل بما أنزل إليه من ربه أن يبين للناس وخاصة أمته وأهل ملته ما نزل إليهم من ربهم وأن ينذرهم عن شر ما يقترفونه مما يعد مخالفاً لما أنزل إليهم من ربهم ومخالفاً لسنة نبيهم ، فقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه .

والنبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (ثلاث لا يغلّ عليهن قلب امرىء مسلم : إخلاص العمل لله ونصيحة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من وراءهم) .

وأن الله – سبحانه – بعث نبيه محمداً – صلى الله عليه وسلم – على حين فترة من الرسل وأنزل عليه الكتاب فيه تفصيل كل شيء وهدى ورحمة فقال : – سبحانه – : « وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين » (من سورة الأنعام) .

فذكر – سبحانه – سبيل المؤمنين مفصلة وذكر سبيل الكافرين مفصلة وذكر سبيل المنافقين مفصلة وذكر سبيل اليهود مفصلة وسبيل النصارى وذكر سبيل المشركين عبدة الأوثان مفصلة ، وذلك لأمن اللبس من اختلاط الأسماء الدالة على مسمياتها . فقال – سبحانه – على سبيل الإجمال : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد » (من سورة الحج) .

فذكر – سبحانه – كل جنس باسمه الذي هو بمثابة العلم الدال عليه ، لا يتعدى إلى غيره أشبه الصفة اللازمة لموصوفها المميزة له عن غيره .

وذلك لأمن اللبس من قلب الأسماء إلى غير مسمياتها أو تحليها باسم لا يختص بها .

لكون الاسم مشتقاً من السمة وهي العلامة ، يقول الله – سبحانه – : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، أي أسماء الأرض والسماء والبحار والأنهار واسم الناس واسم المسلمين والكافرين .

فكل ما أثبته القرآن من اسم الأجناس والأمم كالمؤمنين والمسلمين وكاليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، فلا يجوز تبديلها ولا تغييرها عما وضعت له إلا أن تتغير صفة من وسم بها فيزول هذا الاسم بزوال سببه وصفته.

مثال ذلك اليهودي يصير مسلماً فيزول عنه هذا الاسم السيء ، أي اسم اليهودية ، لأنه صار حنيفياً مسلماً وكذا عكسه .

ولما اعتل بعير لصفية زوج النبي – صلى الله عليه وسلم – وكان عند بعض نسائه فضل بعير ، فقال رسول الله : اعط صفية هذا البعير . فقالت : أنا أعطي تلك اليهودية ، فهجرها النبي – صلى الله عليه وسلم – على هذه الكلمة شهراً ، وقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته .

وهذه الأسماء هي بمثابة العقائد التي تتبدل على حسب رغبة صاحبها في انتقاله عنها إلى خير منها أو إلى شر منها .

ولما كان وقت البعثة وكان عند اليهود أولاد للأنصار يرضعونهم ، لكون الأنصار زمن الجاهلية عبدة أوثان فهم شر من اليهود ، فكبر الأولاد فاعتنقوا دين اليهودية ورضوه لهم عقيدة وطريقة ، وهذا حكمه غير حكم المرتد ، فإن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه وهؤلاء لم يدخلوا في الإسلام وإنما اعتنقوا اليهودية واعتقدوها في بداية نشأتهم فصاروا يهوداً .

وفي الصحيحين أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : » ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تجدعونها) ، ثم قرأ « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » ، فأناط علة التهود بالسبب حيث سلم الآباء أبناءهم إلى اليهود ليرضعوهم فصاروا بذلك يهوداً مثلهم . ومثله متنصرة العرب كنصارى تغلب ، فقد صاروا نصارى لكون عقيدة الإنسان متعلقة بنفسه لا بآبائه ونسبه ، حتى أنه لا يرث الكافر من أبيه المسلم ولا المسلم من ابنه الكافر ، لكون الكفر يقطع الموالاة والنسب كما حكى – سبحانه – عن نبيه نوح حين قال : « رب إن ابني من أهلي – أي وعدتني أن تنجيني بأهلي – قال : يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين » .

وذلك أنه كان مؤمناً وابنه كافراً فانفصل بكفره عن نسبه ، فصار ليس من أهله . ومثله طائفة البهائية في هذا الزمان وكان مؤسس دعوتهم رجلا شيعيا من أهل الأحساء يدعى « السيد أحمد الأحسائي » سنة ١١٦٦ ، وبعد موته تولى القيام بدعوتهم كاظم الرشتي ، وبعد وفاته قام علي محمد وأظهر للناس أنه الإمام المنتظر المهدي ، وأخذ يظهر للناس فنوناً من الكفر وأن شريعته تنسخ شريعة القرآن ، وأنه قد انتهى دور الشريعة المحمدية فلا صلاة ولا صيام ، ثم ادعى أنه باب الله وأنه سيد من عترة الرسول فسموا البابية وهم باطنية كفار بإجماع علماء المسلمين . ومثله طائفة القاديانية وكان مؤسس دعوتهم رجلا يدعى « ميرزا غلام أحمد » من سكنة قاديان بالهند ، يزعم بأنه نزل عليه وحي من الله وأخذ يصرح بآرائه ، ثم أظهر للناس بأنه المسيح المنتظر فخلّف للناس هذا الشر وتبعه جماعة كثيرون في كل بلد وقد أجمع علماء المسلمين على أن البهائية والقاديانية ليسوا من المسلمين قد انفصلوا عن المسلمين كانفصال اليهود عن إسرائيل ، لكون الكفر يقطع الموالاة والنسب ، وقد سمى القاديانية نحلتهم بالأحمدية تدليساً وتلبيساً على الأذهان وضعفة العقول والأفهام .

إن هؤلاء البهائية والقاديانية يعتبرون مرتدين عن الإسلام ، أشبه أتباع مسيلمة الكذاب الذين قاتلهم الصحابة على ردتهم ، وقد أجمع العلماء في هذا العصر على كفرهم ، لأن لهم ديناً غير دين المسلمين وأنبياء غير أنبياء المسلمين ولهذا صدر الأمر بمنعهم من دخول مكة المكرمة في حج أو عمرة أو غيرهما لاعتبار أنهم كفار والله يقول : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

إنه من المعلوم أن الإسلام في مبدأ بعثة محمد – عليه الصلاة والسلام – كان له قوة ونشاط واشتهار حتى دخل فيه أكثر الأمم طوعاً واختياراً وصاروا مسلمين وزال عنهم اسم دينهم السابق من اليهودية والنصرانية والمجوسية ، حيث صاروا حنفاء مسلمين لكون الإسلام هو دين الحق الذي شرعه الله لجميع الخلق ، فقال – سبحانه – : « ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، وقال : « إن الدين عند الله الإسلام » ، وقال : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

وكما أن اليهود قد التحق بدينهم من حقت عليه الضلالة فصاروا يهوداً ولم يبق لهم علاقة في الإسلام ولا اسمه كالسموأل من غسان وغيره ، لكون الإسلام هداية اختيارية يخص به من يشاء من عباده فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً .

وقال – سبحانه – : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ» . وقال : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» .

فهذه الآيات وأمثالها خرجت مخرج التهديد والوعيد الشديد ، يقول الله – سبحانه – : «إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » .

إن كل من تأمل القرآن الحكيم فإنه يجد فيه اليهود باسم اليهود والنصارى باسم النصارى ، كقوله : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق » ، وقوله : « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم » في كثير من الآيات يشق إحصاؤها .

والنبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ، وقال : (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى؟) قال: فمن ؟ وقال في صوم عاشوراء : (صوموا يوماً قبله ويوماً بعده خالفوا اليهود) . وقال : (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة . قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي) . في كثير من الأحاديث بمعنى ذلك كحديثه عن يهود خيبر ويهود بني النضير : ولم يثبت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا عن أصحابه تسمية اليهود بإسرائيل لا في حديث صحيح ولا ضعيف ، بل قال : (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) وفي صحيح مسلم ان النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (قاتل الله اليهود لما حرم الله عليهم الشحوم جملوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها) .

وأحياناً يذكر القرآن اليهود والنصارى باسم أهل الكتاب في حالة المدح والذم في كثير من الآيات كقوله : «ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» .

وقال – سبحانه – : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » (من سورة المائدة) .

وقال : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم» . (من سورة المائدة) .ومثله قوله : «هو الذي أخرج الذين كفرو من اهل الكتاب من ديارهم » . وقال : «وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب » . يعني بذلك اليهود خاصة .

والتعبير بالكفار يجمع اليهود والنصارى والمشركين ، لكون أمم الكفر على اختلاف مذاهبهم أمة واحدة كما في قوله – سبحانه – : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينه » ، فهذه الأسماء هي بمثابة السيماء والعلامات الدالة على من وضعت له فلا يجوز إبدالها بما لا أصل له في الشرع كإبدال اليهود بإسرائيل أو إبدال النصارى بالمسيحيين نسبة إلى اتباع المسيح ، فإن هذا يعد من باب قلب الحقائق والتحريف لكلام الخالق ، فإن من معنى التحريف المذموم هو صرف اللفظ إلى غير المعنى المراد منه ، فإن النصارى بدلوا دين المسيح وخالفوه ولم يكونوا من أتباعه فتسميتهم بالمسيحيين خطأ في التعبير وتحريف للتنزيل ، كما أن اليهود بدلوا دين موسى ودين إسرائيل وكفروا به ولم يكونوا من أتباعه ولا من أتباع إسرائيل ، كما أنهم كفروا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – وبالقرآن النازل عليه فازدادوا كفراً على كفرهم . ، فتسميتهم بإسرائيل هو خداع وتغرير ، وتلبيس على أذهان الناس وإلا فإنهم قد كفروا بما أنزل على إسرائيل وقتلوا الأنبياء بغير حق فبراء منهم إسرائيل كبراءة إبراهيم من أبيه « لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم » .

لقد عرف اليهود تمام المعرفة أن تسميتهم باليهود الذي هو اسمهم الحقيقي من قديم الزمان وحديثه والذي نزل القرآن باسمه ورسمه أنها تسمية سيئة تسمهم

بسمة السوء والنقص والذل فحاولوا التهرب عن هذه التسمية السيئة بقلبها إلى اسم إسرائيل وهو اختلاس منهم لهذا الاسم الذي لا أصل له وليسوا بأحق به ولا من أهله ، وإنما أرادوا أن يوهموا الناس بأنهم حزب إسرائيل وهو كذب مبين ، فإنهم بالحقيقة أعداء إسرائيل وقد انفصلوا بكفرهم عن إسرائيل إذ أن الكفر يقطع الموالاة بين الرجل وبين نسبه وكان الأصل في تسمية إسرائيل أنها تسمية إسلامية في بدايتها ، إذ أن إسرائيل لقب لنبي الله يعقوب بن نبي الله إسحق ابن نبي الله إبراهيم – عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والتسليم – .

والمراد ببني إسرائيل ذريته وأسباطه الاثنا عشرة ، وأطلقت هذه التسمية على جميع أتباعهم ممن يعيش بدولتهم كما تسمي العرب القبيلة باسم جدها الأعلى وكما تنسب الرعايا إلى اسم ملوكها ، كما يقال في هذا الزمان السعوديون نسبة إلى ملوك آل سعود ملوك المملكة العربية السعودية ، وتطلق هذه التسمية على جميع رعاياهم ، فكل فرد منهم يقول : أنا سعودي نسبة إلى ملوك آل سعود وإن لم يكن من أصل نسبهم ، وكذلك بنو إسرائيل ، فإن هذه التسمية تعم كل من كان في زمن بني إسرائيل فيطلقون هذه التسمية على جميع الأفراد الذين كانوا في زمنهم كما في الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لما قيل له : إن الله يقول في مريم : « يا أخت هارون » وإن بين هارون ومريم ألوفاً من السنين . فقال : (أما علمت أنهم يتسمون باسم أنبيائهم) وقد مرّ النبي – صلى الله عليه وسلم – على بعض الصحابة وهم ينتضلون ، فقال لهم : (ارموا فإن أباكم إسماعيل كان رامياً) .

إننا لا ننكر كون بعض اليهود القدامى قد انشعبوا من بني إسرائيل فهم الطائفة الكافرة من بني إسرائيل فصاروا يهوداً فإن بني إسرائيل منهم المسلمون ومنهم الكافرون كما قال – سبحانه – : « فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » ، كان بعض العلماء يقول : إذا سمعت الله يقول : يا بني إسرائيل فإن بني إسرائيل قد مضوا وإنما يعني أنتم لكون الاعتبار في القرآن هو بعموم لفظه لا بخصوص سببه .

فقول النبي – صلى الله عليه وسلم – : (بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) رواه البخاري . فإنه لا يعني ببني إسرائيل اليهود الموجودين – حاشا وكلا – وإنما يعني بهم بني إسرائيل الذين كانوا في زمن موسى وعيسى والذي قال : (إذا حدثكم بنو إسرائيل فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) ، وقال : (إن فيهم الأعاجيب) .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

أن اليهود أول ما سموا يهودا في زمن بني إسرائيل حين كفروا بعيسى بن مريم حين كذبوه وعذبوه وصلبوه بزعمهم ورموا أمه بالمفتريات الشنيعة ، وزعموا أن المسيح عيسى بن مريم ليس هو المسيح المبشر به في التوراة . لأن المسيح الذي ينتظرونه هو المسيح الدجال . والله يقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ، قيل : إنه اشتبه عليهم ، وقيل : إن بعضهم قد عرف بأنه ليس عيسى بن مريم وإنما شبّه على اليهود بأنه عيسى ليتخلص من أذاهم وعقابهم.

(بداية تسمية اليهود باسرائيل)

إن اليهود هم اليهود إسماً ورسماً في كتاب الله وسنة رسول الله وإجماع علماء التاريخ من المسلمين والكافرين ، وقد ذكروا سبب تسميتهم باليهود ، فقيل : هي من قولهم هدنا إليك ، أي تبنا إليك من عبادة العجل . ذكره ابن كثير عن جابر بن زيد عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وقيل : إنه من أجل تمايلهم بقراءة التوراة وقيل : نسبة إلى يهوذا وهو الابن الخامس من أولاد يعقوب فحذفت المعجمة استخفافاً باللفظ وسموا يهوداً والأول أرجح .

والحق إن هذه التسمية نازلة من عند الله لا يجوز تبديلها ولا تغييرها لأنها اسم كالرسم يدل على حقيقة ما وضع له لكون الاسم مأخود من السمة وهي العلامة .

وقد اندرجت سائر القرون من لدن حياة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقبله وبعده إلى هذا القرن الحالي والناس من العلماء والمؤرخين والعامة إنما يسمون اليهود باسم يهود .

لكنهم بكيدهم ومكرهم حاولوا التدليس بالتلبيس على الناس بإبدال هذه التسمية باسم إسرائيل لكونها أليق وأقبل وأعلى وأشرف لأذهان الناس ، فأخذوا يرددونها في إذاعاتهم ومجلاتهم وصحفهم فتلقفها عنهم جميع الأمم المجاورة لهم ، ثم عمت جميع الناس على سبيل المسارقة الخفية للأقوال حتى المسلمون فكانوا لا يتكلمون في كتبهم ولا في مجلاتهم ولا في إذاعاتهم ومنشوراتهم إلا باسم إسرائيل وصار اسمهم الحقيقي أي اليهود بمثابة اللقب المهجور ، وقد يستثقلون التخاطب به لكون ألسنتهم قد تذللت باسم إسرائيل وحتى استقرت حقيقة هذه التسمية في نفوسهم حتى ظنوها حقاً وهي تسمية باطلة ومختلسة ليسوا بإسرائيل وليس إسرائيل منهم ، بل هم أعداء إسرائيل وليسوا من حزبه ، فتسميتهم بإسرائيل تصفهم بالشرف والتكريم وعلو المنزلة ، ولن تجد أبغض إليهم من سماع اسم اليهود وقد سعوا جهدهم وعملوا عملهم بالقضاء على هذه التسمية ومحوها عن صدور الناس وألسنتهم ، وإن تعجب فاعجب إلى متابعة الناس واندفاعهم لما يريدون ويشتهون .

فتسميتهم بإسرائيل إنما حدث من عهد قريب حين قويت شوكتهم ، وعظمت صولتهم ، فحاولوا التهرب عن اسم اليهود الحقيقي لكونه ثقيلا في نفوسهم ونفوس جميع الناس معهم حتى طوائف النصارى وغيرهم على اختلاف مذاهبهم ونحن إنما نحمل متابعة الناس لهم وخاصة المسلمين على تسميتهم بإسرائيل على الغفلة وعدم وجود من ينبه الناس على بطلانها وابتداعها وسوء ما تأول إليه من قلب الحقائق ومخالفة كلام الخالق فلا يجوز للناس إحداث مثل هذه التسمية وحمل كلام الله على هذه التسمية المبتدعة وقد انخدع الناس بهذه التسمية المقلوبة المكذوبة على سبيل العدوى والتقليد الأعمى ولو كان شيخ الإسلام ابن تيمية حياً أو العلامة ابن القيم أو ابن حزم لما تحملوا الصبر على هذه التسمية المقلوبة التي

تذللت ألسنة الناس بها حتى حسبوها حقاً وهي باطلة في حقيقتها « قل فأتوا بكتاب من قبل هذا أو آثارة من علم إن كنتم صادقين » .

إن تسمية اليهود بإسرائيل لا نجد لها أصلا في القرآن ولا في الحديث على كثرة مخاطبة الرسول لليهود وكثرة مخالطة الصحابة لهم ومخاطبتهم لهم فلم يثبت عن أحد منهم تسمية اليهود بإسرائيل وإنما ثبت عن رسول الله قوله فيهم : « يا إخوان القردة والخنازير » .

إن تسمية اليهود بإسرائيل هو خطأ كبير ، ويترتب عليه خطر عظيم من اختلاط اسم اليهود باسم إسرائيل أو بني إسرائيل الذين نزل فيهم كثير من آيات القرآن الكريم ، فإن أصل بني إسرائيل أنهم مسلمون وإن كان خرج منهم على طول الزمان كفار مرتدون ، أما اليهود فهم كفار وليس فيهم مسلمون أبداً .

لقد رأينا بعض العلماء في هذا الزمان قد ساءت أفهامهم فتسلطوا على القرآن بقلب حقائقه . حيث تصرفوا في صرف معانيه النازلة في بني إسرائيل الذين كانوا في زمن موسى وعيسى ابن مريم – عليهما السلام – فكانوا يتكلفون تطبيقها بصرف معانيها إلى اليهود حتى رأيت بعض من فسر سورة يوسف قائلا : إن اليهود الكفرة هم الذين ألقوا أخاهم في الجب وباعوه بثمن بخس وجاءوا آباءهم يبكون ، ثم أخذ يهرف بما لا يعرف في هذا المعنى الذي عفا الله عنه ، إذ هي سيئة تجاوز الله عنها وليس من شرط الأسباط العصمة وقد أثبت القرآن توبتهم واستغفار أخيهم لهم « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » . فالطعن فيهم أو نسبة اليهود إليهم هو من قلب الحقائق والتحريف لكلام الخالق . ومثله من قد رأيناه يتكلم على سورة الإسراء المسماة بسورة بني إسرائيل ، فحين أتى على قوله – سبحانه – : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً » .

ثم رأيته يخلط ويخبط في تفسير هذه الآيات ويحاول بطريق التكلف أن يطبقها على القتال الواقع بين اليهود والمسلمين بركوب التعاسيف في التأويل والخروج إلى غير السبيل .

وخفي عليه أن اليهود غير بني إسرائيل وأن بني إسرائيل غير اليهود ، وإنما قص علينا أخبار بني إسرائيل كخبر موسى وعيسى وداود وسليمان ، ليكونوا للناس بمثابة العظة والعبرة ، وفي أخبار بني إسرائيل ما يدل على أنهم في نشأتهم وبداية أمرهم أنهم ضعفاء مستذلون لدى الفراعنة يسومونهم سوء العذاب ، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، ثم إن الله أنجاهم وأغرق عدوهم ، فقال — سبحانه — : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » .

ثم أخبر — سبحانه — أنه إنما مكنهم وملكهم في الأرض لحسن استقامتهم في عبادة ربهم فكان الله وليهم وناصرهم على عدوهم ، فقال — سبحانه — : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (من سورة القصص) .

فأخبر — سبحانه أنه امتن على بني إسرائيل الذين استضعفوا في الأرض ألوفاً من السنين وكانوا مستذلين تحت سلطة فرعون والقبط يقتلون أولادهم ويستحيون نساءهم للخدمة حتى أنجاهم الله وأهلك عدوهم فجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير والصلاح والتوحيد والعدل وجعل فيهم النبوات والكتاب ومكنهم من الحكم في مشارق الأرض ومغاربها .

يقول الله — سبحانه — : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » فكل من كان عنده زوجة وبيت يسكنه وخادم يخدمه فإنه يسمى ملكاً كما ثبت بذلك الحديث ، فيقال لليهود إن بني إسرائيل في أصلهم مسلمون متبعون لشريعة

موسى وعيسى وسائر النبيين يسيرون على الهدى ودين الحق ، فكانوا بسبب ذلك منصورين ومفضلين على سائر العالمين في زمانهم ، فلما أحدثوا الأحداث وعبدوا الأصنام وصاروا يهوداً كفاراً ، فبسبب ذلك ذلوا وساءت حالهم وسلط عليهم الجبابرة يسومونهم سوء العذاب .

إن اليهود قد سموا يهوداً من زمن بني إسرائيل حين كفروا بشريعة موسى وكذبوا عيسى وانفصلوا عن بني إسرائيل بكفرهم فسماهم الله يهوداً ، فقيل : إنه من أجل قولهم هدنا إليك ، أي عن عبادة العجل وهم الذين قالوا لموسى : « لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة » وهم الذين قيل لهم : « ادخلوا الباب سجّداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم» فكانوا يزحفون على أستاههم ويقولون حنطة (بر وشعير) ، قال الله : « فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم »، وهو نظير تبديلهم اسم اليهود باسم إسرائيل ، وإسرائيل بريء منهم كبراءة إبراهيم — عليه السلام — من أبيه آزر لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

وهم أصحاب السبت الذين قال الله فيهم : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم » ، فكانوا يضعون شركهم في البحر يوم السبت الذي نهوا أن يعملوا فيه ولا يأخذونه إلا يوم الأحد تحيلا منهم في انتهاك حرمة السبت ولهذا قال النبي — صلى الله عليه وسلم — : (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) . وفي الصحيحين من حديث جابر أن النبي — صلى الله عليه وسلم — خطب الناس فقال : (إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ، فقال رجل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة ، فإنه يطلى بها السفن ويستصبح بها الناس . فقال : لا ، ثم قال : قاتل الله اليهود إن الله لما حرّم عليهم شحومها جملوه ، أي أذابوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه) يشير في هذا إلى أن الله — سبحانه — إذا حرّم شيئاً حرّم بيعه وأكل ثمنه .

وهم الذين أنزل الله فيهم « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءُوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم

كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

وهم الذين أنزل الله فيهم « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقـــاب وإنه لغفور رحيم » « فقطعناهم في الأرض أمماً » وهذا أمر واقع ما له من دافع ، لكنه قد يتأخر إلى حين لسبب يقتضيه .

فهذه الآيات وأمثالها نزلت في يهود بني إسرائيل وقد التحق باليهود أخلاط من شتى الأمم والطوائف من أمريكا وروسيا وفرنسا ورومانيا واليونان وبريطانيا وسائر طوائف الكفار ، فالتحقوا باليهود فصاروا يهوداً طريقة وعقيدة فلا يصح أن يقال إن هؤلاء اليهود الذين هم من شتى الأمم والطوائف أنهم بنو إسرائيل فضلا عن أن يقال إنهم إسرائيل كما يزعمون ــ سبحانك ــ هذا بهتان عظيم ، فإن هذا يعد من الكذب المبين .

فإن اسمهم الحقيقي : اليهود وكذا سائر من التحق بعقيدتهم ، إذ اليهود اسم لهذه النحلة فكل من اعتقدها التحق بها من عربي وعجمي ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه . فحرام أن يخترع لهم اسم يقتضي تشريفهم وتكريمهم ورفع منزلتهم وقد أهانهم الله وأذلهم ووسمهم بسيمة السوء واسمه لا يفارق رقابهم ، فإن هذا صريح التبديل في مخالفة أمر الله وتبديل كلام الله ، فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم .

(التفضيل بين بنى اسحاق وبنى اسماعيل)

إنه من المعلوم بطريق اليقين أن نبي الله إسماعيل كان أفضل من نبي الله إسحاق لامتيازه عليه بأمرين جليلين أحدهما بذله نفسه فداء لطاعة أبيه وفي سبيل رضى ربه لولا أن الله فداه بذبح من عنده ولأجله يُسمى الذبيح ، والأمر الثاني مشاركته لأبيه في بناء بيت ربه ، يقول الله : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » ، فهاتان المزيتان لا يجاريه

فيهما أخوه إسحاق ، غير أن بني إسحاق هم أفضل من بني إسماعيل قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - لأن في بني إسحاق النبوة والكتاب وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد ، ثم خرجوا من مصر لما بعث الله موسى وكانوا مع موسى أعزاء ولم يكن لأحد عليهم يد ، ثم مع يوشع بعده إلى زمن داود وملك سليمان الذي لم يؤت أحد مثله وسلط عليهم بعد ذلك بختنصر . فلم يكن لأولاد إسماعيل عليهم أمر ، ثم بعث المسيح وخرب المسلطون بيت المقدس الخراب الثاني ، حيث أفسدوا في الأرض مرتين ، من حينئذ زال ملكهم وقطعهم الله في الأرض أمماً وكانوا تحت حكم الروم والفرس والقبط ولم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم فلم يكن لولد إسماعيل سلطان فوق الجميع حتى بعث الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل ، حيث قالا : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

فلما بعث الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - صارت يد إسماعيل فوق الجميع فلم يكن في الأرض سلطان أعز من سلطانهم وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين وكان لهم حسن العاقبة في التمكين والسيادة والعاقبة للمتقين .

وفي الحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (أنا سيد الناس يوم القيامة) ، فببركة بعثته انتقل الملك والسيادة في الأرض إلى أمته وخاصة أصحابه وأتباعه ، فقال - سبحانه - : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » وصدق الله وعده فصاروا هم ملوك الأمصار بعد أن كانوا عالة في القرى والقفار ، وهذا العز والسيادة في الأرض هو مقيد بقوله تعالى :

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » ، « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

قال قتادة : « إن العرب قبل الإسلام وقبل بعثة محمد — عليه الصلاة والسلام كانوا أذل الناس ذلا وأشقاهم عيشاً وأجوعهم بطوناً وأعراهم ظهوراً وأبينهم ضلالا ، يُؤكلون ولا يَأكلون والله ما نعلم من عَالَمٍ أهل الأرض شرٌّ منزلة منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس ، فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر » .

(حياة بنى اسرائيل النازل بذكرهم القرآن الكريم)

إن من الخطأ الواضح حمل الآيات النازلة في بني إسرائيل بصرفها في تفسيرها على اليهود لظنهم أنهم بنو إسرائيل وليس بصحيح ، فإن بني إسرائيل غير اليهود حتى مع فرض تقدير كونهم أو بعضهم قد انشعبوا من حزب بني إسرائيل ، فإنهم قد انفصلوا عنهم بكفرهم ، فإن الكفر يقطع الموالاة والنسب وقد سماهم الله يهوداً من زمن بني إسرائيل كما أن أصل بني إسرائيل مسلمون مؤمنون كما حكى الله عن فرعون أنه قال : « آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » ، واليهود كلهم كفار وليس فيهم مسلم .

وإنه من المعروف من نصوص القرآن الحكيم أن الله فضـــل بني إسرائيل على العالمين ، أي عالمي زمانهم .

يقول الله : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين » .

وهذا الفضل الذي حازوه ونَوَّه القرآن والكتب المقدسة به إنما هو بتمسكهم بالدين وعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، قال — سبحانه — :

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين» فإسرائيل لقب نبي الله يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم – قيل معناه : الأمير المجاهد مع الله ، وأطلق عليهم لقبه في كتبهم وتواريخهم كما تسمي العرب القبيلة باسم جدها الأعلى ، سيما إذا كان ذا شرف وفضل فهم يفتخرون بانتسابهم إليه .

وهذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم وكرر ذكرها في القرآن هي نعمة جعل النبوة فيهم أزماناً طويلة ، ولهذا كانوا يسمون شعب الله كما في التوراة ، فكانوا بذلك مفضلين على سائر الأمم والشعوب في أزمانهم ، فناداهم الله باسم أبيهم إسرائيل الذي هو أصل عزهم وسؤددهم ومنشأ تفضيلهم وأسند نعمة التفضيل إليهم جميعاً ، لأن النعمة عمتهم والتفضيل شملهم ، وبذلك استمروا في ملكهم كما قال – سبحانه – :« وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » .

وقال – سبحانه – : « ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » .

إن بني إسرائيل في أصلهم وفي بداية نشأتهم كانوا مؤمنين موحدين ، وذكر ابن كثير في التفسير عن ابن إسحاق عن وهب بن منبه قال : كان بنو إسرائيل بعد موسى – عليه السلام – على طريق الاستقامة مدة من الزمان ، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا

ما فعلوا فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا خلقاً كثيراً وأخذوا منهم بلاداً كثيرة ، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبهم ، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم – عليه أفضل الصلاة والتسليم – فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل ، وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم ، ولم تزل المرأة تدعو الله – عز وجل – أن يرزقها غلاماً ، فسمع الله لها ووهبها غلاماً فسمته شمويل ، أي سمع الله دعاءها ومنهم من يقول : شمعون وهو بمعناه فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأنبته الله نباتاً حسناً ، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده ، فدعا بني إسرائيل إلى الله . انتهى .

وكان بنو إسرائيل مضطهدين مستذلين تحت سلطة فرعون وقومه يسومونهم سوء العذاب ، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم للخدمة ، فأرسل الله نبيه موسى وأوحى إليه ما أوحى فدلهم موسى على معرفة الله وعبادته ووعدهم أن الله سيخلصهم من عبودية فرعون وقومه وأن يخرجهم من مصر إلى أرض الميعاد التي هي بيت المقدس ، فطلب موسى من ربه إنجاز ما وعده .

فأخرجهم من مصر بيد القدرة وشق لهم البحر بعد أن أمر الله نبيه موسى بأن يضربه بعصاه فانفلق ، أي انشق فكان كل فرق كالطود العظيم ، أي كالجبل الشامخ ، فصار الماء كالجدران المبنية عن يمينهم وشمالهم وهو بناء من الله ، كالحارس فلما أقبل فرعون بجنوده قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا إن معي ربي سيهدين .

فلما دخل فرعون وجميع جنوده في البحر بعد خروج موسى وقومه منه فانطبق عليهم الماء فأغرق فرعون وجنوده وبنو إسرائيل ينظرون إليهم . يقول

الله – سبحانه – : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (من سورة القصص) .

فهذا التفضيل الذي فضل الله به بني إسرائيل وأثبته في كتابه المبين إنما يراد به التفضيل الديني ، إذ أن التفضيل خاص بالمهتدين بكتاب الله تعالى والمقتدين بالأنبياء الذين بعثوا فيهم من ذرية يعقوب وإسحاق وإبراهيم – عليهم أفضل الصلاة والتسليم – وفي الصحيحين أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبياؤهم كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي) .

وقد كان الأنبياء في بني إسرائيل أكثر منهم في غيرهم من سائر الشعوب وكان المهتدون الطائعون لله منهم أكثر من غيرهم من سائر الشعوب المعاصرة لهم ، يقول الله : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

(بداية نشأة بنـــي اسرائيل)

إن بداية نشأة بني إسرائيل صحبة موسى هي في الضعف والقلة والاضطهاد بمثابة بداية بعثة محمد – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه . والمؤمنون من بني إسرائيل هم بمثابة المؤمنين من أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – وقد أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس أنه قال : عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ثم نظرت فإذا سواد عظيم ،

فقيل لي هذه أمتك ، وفيه دليل على كثرة أتباع موسى على دينه .

والقرآن الحكيم يثبت بأن الله أمر بني إسرائيل بما أمر به المؤمنين من أمّة محمد ، يقول الله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » (من سورة البقرة) .

فهذه الآية تشبه قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين . . الآية » .

ومثله قوله : « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » (من سورة المائدة) .

والنقباء من بني إسرائيل هم بمثابة النقباء ليلة العقبة مع النبي – صلى الله عليه وسلم وهم بمعنى الرقباء على قومهم فالقرآن وكتب العهد من التوراة والإنجيل والزبور يبين الله لهم فيها ما يتقون وما يجب أن يفعلوه من عبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه ، وأنهم متى فعلوا ذلك فازوا بسعادة الدنيا والآخرة ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، يقول الله : « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » .

وإن من قواعد الشرع الإلهي العام أن الإيمان والطاعة يضاعف لصاحبها الأجر في الآخرة مع ما يساعده في الدنيا ، وقد حذر الله بني إسرائيل على لسان موسى وعيسى بن مريم ، إذا هم نقضوا عهده بالكفر والمعاصي بأن يعاقبهم أشد العقوبات بالذل والضر واستيلاء الأعداء ، فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون كما قال – سبحانه – : « فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » .

لقد وصف القرآن العظيم المهيمن على جميع الكتب قبله حالة بني إسرائيل في بداية أمرهم ونهايتهم من كفرهم وبغيهم وقتلهم الأنبياء بغير حق وما عاقبهم به من سلب الملك وضرب الذلة عليهم بفقد الملك وتسلط الأعداء عليهم إلى يوم القيامة يسومونهم سوء العذاب وأنهم لم يعتزوا في بداية أمرهم بأنفسهم أو بنسبهم ، وإنما اعتزوا بالدين الذي فضلهم به على العالمين في زمانهم . وهذا هو حقيقة ما أجمله القرآن ودعا إليه في بيان سنن الاجتماع ، وأن الله سلبهم الملك لما كفروا بنعمه وأشركوا في عبادته كما بينه – سبحانه – في سورة الإسراء المسماة بسورة بني إسرائيل ، حيث قال : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً » .

وقد انقضى كل ما كان لبني إسرائيل من التفضيل على غيرهم وانتقل إلى ذرية إسماعيل بن إبراهيم وهم العرب ، فقد فضلهم الله على الناس ببعثة محمد – صلى الله عليه وسلم – الذي هو خاتم النبيين ، وفي الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله) . يقول الله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » . فالمهتدون من اصحاب محمد والطائعون له في سرائهم وضرائهم والمجاهدون معه في سبيل الله هم اكثر من المؤمنين من بني اسرائيل فكانوا هم أكرم الأمم عند الله .

ثم ذكر – سبحانه – عن نقض عهدهم وميثاقهم الذي عاهدوا به ربهم من عبادته وحده وترك عبادة ما سواه ، وأنه السبب في ذلهم وضرهم وسلب ملكهم وتقطعهم في الأرض ، فقال – سبحانه – : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم » (من سورة المائدة) . وقال : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم

قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً » (من سورة النساء) .

وهذا هو حقيقة عقيدة اليهود ، كفروا بعيسى بن مريم وكذبوه ورموا أمه بالمفتريات العظيمة وزعموا أنهم صلبوه ووضعوا الشوك على رأسه ، ثم كفروا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – وكذبوه وكذبوا القرآن النازل عليه وهو الحق مصدقاً لما معهم . . يقول الله : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين» . وهذه الآيات كلها نزلت في اليهود يبين – سبحانه – فيها أن كفرهم هو كفر عناد وجحود فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين .

(بداية نشأة دولة بنى اسرائيل وحقيقة عقيدتهم)

إن أصل نواة بني إسرائيل التي انبثقت عنها شجرتهم حتى انتشرت واشتهرت هي وجود نبي الله يوسف الصديق في مصر وقدوم أبيه وإخوته عليه . إن نبي الله يوسف أتاها في حالة كره واضطرار ، حيث أخبر الله عنه أنهم شروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، فالبائع زاهد فيه ورخيص في نفسه والمشتري زاهد في تملكه ولسان القدر ينادي :

وربما صار مكروه النفوس إلى
محبوبها سبباً ما مثله سبب

إن الله – سبحانه – قص علينا خبر يوسف وإخوته وما جرى عليه من البلاء في بداية نشأته كسائر ابتلاء الأنبياء ، فقال – سبحانه – : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » ثم ذكر تاريخ حياته كلها في السورة المسماة باسمه حتى ختمها بقوله : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه – يعني التوراة – وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

إن خير الحديث كتاب الله وقد أخبر الله عن مبدأ أمر يوسف أن إخوته على جهالة منهم بأنهم ألقوه في الجب ، قيل حسداً منهم له على شدة محبة أبيهم له كما أشار القرآن الحكيم إلى ذلك بقوله: « وقالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين اقتــلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » .

وهذه تعتبر خطيئة اقترفوها على جهالة منهم في حالة شبابهم وليس من شرط الأسباط العصمة كالصحابة ، فقد يذنب أحدهم ثم يتوب ويتوب الله عليه ، وقد أثبت القرآن توبتهم واستغفار أبيهم لهم ، فلما ألقوه في الجب زاهدين فيه ومبغضين له فإذا هم بعد زمان يأتون إليه قائلين لقد جئنا ببضاعة مزجاه فاوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين والعاقبة للمتقين ، فلما عمل عمله معهم في محاولة إتيانهم بأخيهم بنيامين ووعدهم أن سيوفي لهم الكيل ويتصدق عليهم متى أتوه به ، فطلبوا من أبيهم السماح بسفره معهم والتزموا حفظه ورعايته حتى يردوه إليه فحصل عليه ما حصل وجلا يوسف له أمره وقال : إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، إن يوسف الصديق قبل النبوة عند ملك مصر ، ولما عرف منه الذكاء والفطنة وحسن السياسة والسيرة عرض عليه أعمال مملكته ليختار الولاية على حسب رغبته ، فقال : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » . وخزائن الأرض هي الزروع والثمار ، فتولى ماتولى من ذلك ، « فجاء أخوة يوسف فعرفهم وهم له منكرون » لتقادم عهدهم به ، فقال لهم : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ! قالوا

أإنك لأنت يوسف ؟! قال : أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال : لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ، وبعد ذلك أمر يوسف أخوته بأن يرجعوا إلى أبيهم ويطلبوه أن يستغفر لهم ، وقال : آتوني بأهلكم أجمعين فرجعوا إلى أبيهم وحملوه وكافة أهلهم وهذا أول مبدأ دخول إسرائيل في مصر ، إنه في كل هذه الحالات لم يوح إليه بشيء قبل أن يبتلي بفتنة امرأة العزيز التي ألقي في السجن من أجلها فمكث في السجن سبع سنين ، وبدأ نزول الوحي عليه في السجن بعد أن بلغ أشده – أي أربعين سنة – وبعد موت ملك مصر آتاه الله الملك والنبوة ، فلما أتم له ما يريد من النبوة والملك والتمكين في الأرض اشتاق إلى لقاء ربه فقال : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » .

إن القرآن الكريم لم يثبت وجود أنبياء من بني إسرائيل بين يوسف وبين موسى وهارون ، كما أنه لم يثبت وجود أنبياء من بني إسرائيل غير هارون وموسى ، ما عدا الأسباط الذين هم أولاد يعقوب ، ففيهم خلاف بين العلماء هل هم أنبياء أو ليسوا بأنبياء ويظهر أن الأنبياء الكثرة هم ما بين موسى وعيسى وبعد عيسى انقطعت نبوات بني إسرائيل فلم يكن بين عيسى وبين محمد – عليه السلام – أحد من الأنبياء ، كما أنه زال ملكهم وذهب سلطانهم وبين يوسف وموسى سنين طويلة الله أعلم بعددها .

وحاصل الأمر اليقين الذي أثبته القرآن الكريم أن بني إسرائيل مكثوا في مصر مستضعفين كحالة سائر الناس .

ثم إنه تسلط عليهم فرعون وهامان وقارون وجنودهم على بني اسرائيل فكانوا يقتلون الأبناء ويستحيون النساء للخدمة ، كما قال – سبحانه – : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم

وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم» ، إذ لا أشد بلاء من قتل الأولاد واستعباد النساء للخدمة وكان فرعون قد رأى أنه سيبعث في بني إسرائيل رجل يقتله ويسلبه ملكه ، ففزع من هذه الرؤيا وعمل عمله في قتل كل مولود إسرائيلي ، فكتب الله أن يربى هذا الغلام في بيته لما وقع في قلب زوجته من محبته ، فكان هلاكه بسببه .

فلما بلغ الأمر ببني إسرائيل إلى غاية الشدة ونهاية المشقة ولم يجدوا لهم ملجأ ولا فرجاً ، فعند ذلك أوحى الله إلى موسى وكان بمدين مدينة شعيب فناداه ربه « أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » .

ثم قال : « وما تلك بيمينك يا موسى ؟ وكان بيمينه عصاً من الشجر قال : «هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي» ، وهي عصا عادية من الشجر يتوكأ عليها ويضرب بها الشجر حتى يتساقط الورق للغنم . فقال : « ألقها ياموسى فألقاها فإذا هي حية تسعى – أي ثعبان عظيم – قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء » – أي من غير برص ، وذلك أنها تكون بيضاء كضياء الشمس الشارقة – فذلك برهانان من ربك وهاتان الخصلتان هما مبدأ معجزات نبي الله موسى ، وإنما سميت معجزة لكون الخلق يعجزون عن الإتيان بمثلها وهي تحقق وتصدق نبوة من أتى بها .

ثم قال : «لنريك من آياتنا الكبرى . اذهب إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال : لاتخافا إنني معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » ، وبعد ذلك وبعد اعتراف نبوته في يوم الجمع ، اشتد فرعون في عداوته وعزم على قتله واستئصال فرعه وأصله ، فخرج موسى بمن معه من مصر خائفاً من عدوه حتى أتى البحر فأمره ربه أن يضرب بعصاه فانفلق فكان

كل فرق كالطود العظيم – أي كالجبل العظيم – حيث انفلق عن اثني عشر طريقاً بعدد الأسباط .

فلحقهم فرعون بجنوده حتى قال أصحاب موسى : إنا لمدركون ، قال : كلا إن معي ربي سيهدين ، فلما تكامل خروج موسى وقومه من البحر وتكامل فرعون وجنوده فيه انطبق عليهم البحر فكانت أجسامهم للغرق وأرواحهم للنار والحرق .

يقول الله – سبحانه – : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (من سورة القصص) .

ومن الآن بدأ نبي الله موسى وقد زال ما به وبقومه ما أصيبوا به من الذل والاضطهاد والتضييق وبدأ يعمل عمله في تأسيس دولة بني إسرائيل وقد أيده الله بالمعجزات الباهرات من أجل شراسة أخلاق قومه وعصيانهم أمره وتمردهم عليه .

فمن معجزاته : اليد والعصا وانفلاق البحر وتضليل الغمام والحجر الذي الذي يحمله ثم يضربه بعصاه فينفجر اثنتي عشرة عيناً والجراد والقمل والضفادع والدم آيات بينات لكنهم لم يزددْ أكثرهم بها إلا كفوراً .

(فصـــل)

إن الله – سبحانه – بعث نبيه محمداً رسولا إلى كافة البشر عربهم وعجمهم ومن لدن سماع الناس ببعثته وهم ممسكون بأقلامهم يؤرخون حياته منذ حملت به أمّه ثم ولدته ، ثم يذكرون رضاعه ونشأته ، ثم بعثته وانتشار دعوته في الأقطار وغزواته وفتوح خلفائه وأصحابه للأمصار وانتشار دين الإسلام في

مشارق الأرض ومغاربها ، ومع هذا كله فإنها لم تثبت جميع التواريخ الإسلامية وغير الإسلامية وجود طائفة في مشارق الأرض أو مغاربها تسمى إسرائيل أو تسمى بني إسرائيل .

لأن الله — سبحانه — قد قطعهم في الأرض فذابوا بين الأمم ، فمنهم من التحق باليهود فكانوا يهوداً ، ومنهم من اعتنق النصرانية فصاروا نصارى ، ومنهم من اعتنق الصابئة فصاروا صابئين ، حتّى لم يبق لهم باقية معروفة بعد عيسى بن مريم — عليه الصلاة والسلام — وهو آخر أنبياء بني إسرائيل وليس بينه وبين نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — أحد من الأنبيـــاء ، فقد زال إسمهم بزوال ملكهم .

وكان بعض السلف يقول : إذا سمعت الله يقول : يا بني إسرائيل فإن بني إسرائيل قد مضوا وإنما يعني أنتم لكون الاعتبار في القرآن هو بعموم لفظه لا بخصوص سببه ، وقد سيقت قصص بني إسرائيل وقصص الأنبياء مع أممهم للعظة والعبرة فهو يتمشّى على حـــد : إياك أعني واسمعي يا جارة ، وخير الناس من وعظ بغيره .

ولما قرأ النبي — صلى الله عليه وسلم — « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » قال : هذه لكم وقد مضى للقوم بين أيديكم مثلها ، ثم قرأ « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » .

(ان اليهود هم اليهود اسما ورسما وليسوا بنى اسرائيل)

إن تسمية اليهود باسرائيل يوقع الناس في خطأ كبير فيما يتعلق بالعقيدة مع مخالفة الحق والحقيقة وللكتاب والسنة ، وذلك أن العوام وضَعَفَة العقول والأفهام حينما يسمعون القرآن يثني على بني إسرائيل وأن الله فضلهم على العالمين فيذهب فهم أحدهم إلى أنه يعني اليهود فيزول التمييز بين بني إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين وبين اليهود المغضوب عليهم في كتابه المبين ، ثم

أمر آخر وهو أن الناس حينما يرون ويسمعون بالجرائم التي يعملها اليهود فيهم فتراهم يلعنون إسرائيل لظنهم أنهم إسرائيل وخفي عليهم أن إسرائيل وضع إسماً لنبي الله يعقوب فيتوجه سبهم ولعنهم إلى هذا النبي الكريم والسبب يعمل عمل المباشرة في مثل هذا ، كما في الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا : وكيف يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم . . يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه ، فمتى قال : لعن الله أباك ، قال له الآخر : لعن الله أباك ، فكأنه سب أباه بهذه الصفة ، ومثله قوله – سبحانه – : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » ، فنهى الله عباده المؤمنين عن سبهم صنم المشركين الذي يعبدونه لأنهم إذا قالوا لهم : لعن الله ما تعبدون فيكون سبهم لصنمهم سبباً في سب الله فنهوا عن ذلك سداً لذريعة سب الإله الحق .

إن قلب الأسماء وإن لم تغير المسميات عن حقائقها ، بحيث لا تجعل الحلال حراماً لكنها تعمل عملها في إزالة الإحساس الذي يحز في قلوب الناس ، لأن الأفعال المنكرة والأقوال الباطلة متى كثر على القلب ورودها وتكرر على اللسان النطق بها فإنها تذهب وحشتها من القلوب شيئاً فشيئاً حتى لا يراها الناس أنها منكرات ولا يمر بفكر أحدهم أنها مخالفات ، وذلك بسبب سلب القلوب نور التمييز والإنكار ، وهذا هو حقيقة ما كنا نحاذره ونتقيه في مضرة قلب اسم اليهود بإسرائيل ، فإنه بطول الزمان يزول بغض اليهود الذين هم أعداء الإسلام والمسلمين ، يقول الله – سبحانه – : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » .

وقد أشار النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى ذلك بقوله : (إن الناس في آخر الزمان يشربون الخمر ويسمونها بغير إسمها) فتجعل أكثر العوام يستبيحون تناولها بدون تأثر ولا تفكير في إنكارها ، لكونهم قد انخدعوا وتأثروا بقلب إسمها ، ومثله قلب اليهود باسم إسرائيل ، فيترتب عليها من الغرور والخداع ما ذكرنا .

أما اليهود حين بعث الله نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - وهم كثيرون متفرقون في اليمن وخيبر والمدينة ومستذلون في سائر البلدان فدخل بعضهم في الإسلام طوعاً واختياراً فصاروا مسلمين ، أما من اختار البقاء منهم على دينه وعقيدته فإنهم في ظلال الإسلام والمسلمين آمنين مطمئنين ويسمون أهل الذمّة لكونهم في ذمة الله وذمّة المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين فيما يتعلق بأمور الحياة ، فمن رامهم بسوء غَرِمَ وأثمَ ولا يكرهون أحداً على الخروج عن دينهم إلا بطريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، لأن الله - سبحانه - يقول : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

وقال : « لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

وهذا من سماحة الإسلام الذي جعل الأمم يدخلون فيه طائعين مختارين ولم يقاتل النبي - صلى الله عليه وسلم - يهود المدينة ويهود خيبر إلا لما نقضوا العهد الذي عقده رسول الله لهم وأعلنوا بحربه مع قريش والأحزاب ، حين تحزبت القبائل على حرب الرسول وأصحابه عام الخندق وكان أكبر من حرضهم على نقض العهد هو كعب بن الأشرف ، فقاتلهم رسول الله وأجلى بعضهم .

بخلاف ملوك النصارى وأكثر الأمم ، فقد كانوا يكرهون الناس على الخروج عن عقائدهم في سبيل متابعتهم على دينهم ويقتلون الجماعات على ذلك .

فمن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في الجواب الصحيح في الوجه الثامن والعشرين من الجزء الثالث ، فقال ما نصه :

(فصـــــل)

وأمر الملك قسطنطين ألا يسكن يهودي بيت المقدس ولا يجوز بها ومن لم يتنصر فإنه يقتل .

فتنصر من اليهود خلق كثير وظهر فيهم النصرانية ، فقيل للملك : إن

اليهود يتنصرون خداعاً فزعاً من القتل وهم على دينهم . فقال الملك : كيف لنا أن نعلم المتنصر الحقيقي من اليهودي ؟ ، فقال له بلس : إن الخنزير حرام في التوراة وإن اليهود لا يأكلون لحم الخنزير ، فأمر أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها وتطعمهم منها ، فمن لم يأكل منهم منها علمنا أنه مقيم على دين اليهودية.

فأمر الملك بذبح الخنازير وطبخها وأن تقطع صغاراً وتوضع على أبواب الكنائس يوم أحد الفصح وكل من خرج من الكنيسة فإنه يلقم لقمة من لحم الخنزير ومن لم يأكل منه فإنه يقتل وكتب إلى جميع مملكته بذلك ، فقتل لأجل ذلك خلق كثير .

واليهود اليوم قد التحق بعقيدتهم كل من دبّ ودرج من سائر الأمم من أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا واليونان وبريطانيا وعبدة الأوثان وسائر الطوائف والأمم وكلهم ليسوا من بني إسرائيل .

(فصـــل)

(فى تحريم تحريف القرآن بصرفه الى غير المعنى المراد منه)

من ذلك تفسير بعض العلماء لقوله – سبحانه – : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » (من سورة بني إسرائيل) .

إن من سوء التعبير وركوب التعاسيف في التفسير كون بعض العلماء عندنا يأتي على هذه الآيات حينما يحاول التذكير بمدلولها فيحملها على الحروب الواقعة

في هذه السنين بين المسلمين وبين اليهود اعتماداً على تسمية اليهود باسم إسرائيل وهي تسمية مقلوبة مكذوبة وهذا هو حقيقة ما كنا نحاذره ونتقيه من عموم ضرر هذا التبديل وتسمية اليهود بإسرائيل ، حيث ينخدع الناس على طول الزمان بهذه التسمية فيحملون الأوصاف الحسنة التي وصف الله بها المؤمنين من بني إسرائيل من تفضيلهم على العالمين ، فيظن بعض من ظن أنهم اليهود فيضل في تفسيره ويضل الناس معه فيقعون في قوله ــ سبحانه ــ : « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم » .

أما بنو إسرائيل الذين نزل فيهم هذه الآيات وأمثالها فهم الذين كانوا في زمن داود وسليمان وزكريا ويحيى وموسى وعيسى وغيرهم من سائر أنبيائهم . والله ــ سبحانه ــ حينما يخاطب اليهود فإنه يخاطبهم باسمهم المرسوم لهم كقوله ــ سبحانه ــ : « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » ، وقال : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ، « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » ، أو يخاطبهم باسم أهل الكتاب ، كقوله ــ سبحانه ــ : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب » ، وقال : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر » ، يعني بهم يهود بني النضير .

أما بنو إسرائيل المذكورون في القرآن فأكثرهم مسلمون كما قال سبحانه : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

ومثله قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) رواه البخاري .

فإنه لا يعني ببني إسرائيل اليهود قطعاً وهذا واضح جليّ لا مجال للشك

في مثله . ويؤيده ما في الصحيحين أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبياؤهم كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي) .

ولما كان اليهود أكثرهم بالمدينة فقد نزلت سورة البقرة وهي مدنية وفيها التذكير بما منّ الله به على بني إسرائيل بقوله : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ، إذ لا أعظم بلاء من قتل الأولاد واستعباد النسوة للخدمة ، حيث كانوا في ذلك الزمان مستضعفين تحت سلطة فرعون وهامان وقارون والقبط . ثم دعا اليهود إلى الإيمان بالله والتصديق برسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – وبالقرآن النازل عليه وإن لم يؤمنوا به فإنه سيصيبهم ما أصاب المكذبين من بني إسرائيل الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وبعد أن علم – سبحانه – بإصرارهم على كفرهم وعنادهم أنزل الله كالتسلية للمؤمنين « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ؟ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون » .

فهذه الآيات كلها في اليهود ولها أسباب من الآثار تفسرها في مناظرة الصحابة لهم .

ثم قفى عليها بقوله – سبحانه – : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا – أي يقولون للأنصار إنه

سيبعث نبي هذا أوان خروجه وسنقاتلكم معه ـ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءُوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » . ثم قال ـ سبحانه ـ : « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ـ أي من القرآن ـ قالوا نؤمن بما أنزل علينا ـ أي من التوراة ـ ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم » . فكفرهم هو كفر جحود وعناد .

فهذه الآيات نزلت في اليهود وذكر المفسرون سبب نزولها من جدال المؤمنين معهم ودعوتهم لهم إلى دين الإسلام وإلى الإيمان بمحمد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ وإلى التصديق بالقرآن ولكنهم أصروا على الكفر والعناد فباءُوا بغضب على غضب .

ولسنا ننكر كون بعض الحوادث في هذا الزمان يتناولها شمول معنى الآيات فإن من صفة القرآن أنه نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا وحكم ما بيننا فمنه ما تأويله سيقع فيما بعد ومنه ما تأويله لا يقع إلا يوم القيامة ، كقوله ـ سبحانه ـ « هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » (من سورة الأعراف) وهذا التأويل هو ظهور أمر المغيبات جلية للعيان طبق ما أخبر الله عنه في القرآن جلية حين تحق الحقائق ويتجلى الرب للخلائق وتظهر الملائكة للناس وتبدو الجنة عياناً والنار عياناً ، فعند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون » .

والمقصود أن تسمية اليهود بإسرائيل لم يثبت لها أصل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا عن أحد من أصحابه وجميع المؤرخين من المسلمين والكافرين طيلة السنين إنما يكتبون باسم اليهود لا باسم إسرائيل وإن تعجب فعجب من اندفاع الناس إلى متابعتهم على هذه التسمية المبتدعة والكاذبة الخاطئة

المقتضية لتشريفهم وتكريمهم ورفع مزيتهم ومنزلتهم والله – سبحانه – قد أذلهم وذمهم وسماهم يهوداً تسمية لا تفارق رقابهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقد ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءُوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة .

وهب أن أصلهم من كفار بني إسرائيل وعندهم التوراة ، لكنه لا يجوز أن يحدث لهم تسمية مبتدعة غير تسميتهم التي سماهم الله بها لكون الاسم مشتقاً من السمة وهي العلامة ، فلا يجوز إحداث تسمية يسمون بها ثم يتكلف بعض الناس حمل كلام الله على هذه التسمية المبتدعة وقد سماهم الله اليهود من لدن نزول التوراة ، فقال – سبحانه – : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار – أي ويحكم بها الربانيون والأحبار – بما استحفظوا من كتاب الله» فسماهم الله يهوداً من لدن نزول التوراة ، كما قال – سبحانه – : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، فهذه هي تسميتهم الحقيقية .لا التسمية المكذوبة المقلوبة فإن تسميتهم بها يعد من التبديل الذي قال الله فيه : « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم » .

ثم نعود إلى تفسير الآيات في قوله : «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب» قال ابن كثير : أي تقدمنا إليهم وأخبرناهم في الكتاب الذي أنزلناه عليهم ، وأنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً ، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس فأيد هذا الإفساد باللام الموطئة للقسم ثم بنون التوكيد الثقيلة فإذا جاء وعد أولاهما ، اي أولى الإفسادتين بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ، أي سلطانهم عليكم فجاسوا خلال الديار ، أي ملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم لا يخافونكم وكان وعداً مفعولا .

قال : وقد اختلف المفسرون من الخلف والسلف في هؤلاء المسلطين على بني إسرائيل والذين يسومونهم سوء العذاب فقال بعضهم : إنه بختنصر وجنوده سلط على بني إسرائيل أولا وأذلهم وأسرف في قتلهم وهدم بيت المقدس وعمل أعمالا منكرة يطول ذكرها ، وعن ابن عباس وقتادة أنهم جالوت الجزري وجنوده سلط عليهم أولا ثم أديلوا عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت ، وهذا معنى قوله : « ثم رددنا لكم الكرة عليهم » وكان ابن عباس في تفسيره للآية يشير إلى قوله – سبحانه – : « ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله . قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا . قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم » إلى قوله : « فلما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

وموضع العبرة من الآيات هو أن القرآن بلاغ للناس وليُنذَروا به ، فذكره أخبار بني إسرائيل الماضين هو لأجل العظة والاعتبار بما تضمنته الوقائع والآثار كما هي سنته – سبحانه – في تنويع التذكير بالخير والشر ، وأن بني إسرائيل لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدواً غاشماً فاستباح بيضتهم وأذلّ عزتهم ، لأن للمعاصي عقوبات وللمنكرات ثمرات ، ولهذا يقول الله : « عسى ربكم أن يرحمكم برفع هذا البلاء والتسليط وإن عدتم عدنا – أي إن عدتم إلى البغي والطغيان – عدنا إلى أدبكم بتسليط الأعداء عليكم وأنواع العقوبات

وأما قوله : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً » .

فهذا التسليط والله أعلم محمول على تسلـــط بختنصر وجنوده لكونه وقع بعد المسيح وبعد قتل جالوت بسنين طويلة وخرب بيت المقدس الخراب الثاني ومن حينئذ ساءت وجوههم وزال ملكهم وقطعهم الله في الأرض أمماً فكانوا أذلاء تحت حكم الروم والفرس والقبط .

والله يقول : « وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ، وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » وليس هذا الجزاء مخصوصاً ببني إسرائيل دون غيرهم ، ولكنه عام لكل من اتصف بصفتهم وسار على طريقة إفساد بغيهم وظلمهم ، لأن بني إسرائيل أكثرهم قد كفروا وعصوا وتمردوا عن طاعة أنبيائهم وقتلوا خلقاً كثيراً من من الأنبياء والعلماء بغير حق وجرى منهم وعليهم أمور وكوارث يطول ذكرها .

الحكمة فى تكرار ذكر بنى اسرائيل فى القرآن الحكيم وقصص الانبياء وأهدافها عليهم أفضل الصلاة والتسليم

إن هذاالقرآن بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب فيه نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا وحكم ما بيننا. يقول الله : « وكذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً .

وقال ـ سبحانه ـ : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » ، وقال : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

والغاية من قصص الأنبياء وأممهم كبني إسرائيل وغيرهم هي العظة والعبرة والأخذ بسنن الحق واللجوء إلى العدل والجدال مع المخالفين بالتي هي أحسن والتبشير برضوان الله لمن عبده واتقاه ولم يشرك به أحداً ، وتحذير من خالف أمره وارتكب نهيه من عقاب الدنيا وعذاب الآخرة . وفيه أدب مبادئ الدعوة الإسلامية وأهدافها وفيه تثبيت قلب النبي وأصحابه ومن اتبعهم بأن ما جاء به هو الحق مصدقاً لما قبله من الكتب المقدسة يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ويدل دلالة واضحة على صدق ما جاء به وأنه مبلغ عن ربه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، قال – سبحانه – : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . . إلى قوله : واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون » .

وإن الله – سبحانه – إذا ذكر بني إسرائيل وغيرهم بشيء من مخالفة الأمر وارتكاب النهي والعقاب عليه ، فإن بني إسرائيل قد مضوا وانقضوا ، وإنما يعني به جميع الناس فهو يتمشى على حد إياك أعني واسمعي يا جارة ، وخير الناس من وعظ بغيره .

فحين جاء محمد – عليه الصلاة والسلام – بهذه القصص الرائعة عن الأنبياء قبله بهذا البيان والتفصيل المحكم وهو النبي الأمي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، فمتى عرض ما جاء به على أحبار اليهود ورهبان النصارى وسواهم من الأمم ، كان بذلك أعظم دليل على أن ما يأتي به هو وحي من ربه ليس من قول البشر . وقد أشارت بعض الآيات إلى هذا الغرض في مقدمات بعض القصص أو في ذيولها ، قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (من سورة هود) .

كما أن الغاية من قصص الأنبياء هي بيان أن الدين كله من عند الله من من عهد نوح إلى عهد محمد – صلى الله عليه وسلم – وأن المؤمنين كلهم أمة

واحدة على أصل دين الإسلام والله الواحد الأحد الفرد الصمد هو رب الجميع فليس بين الأديان السماوية فرق في أصل الدين ، بل إنها جميعاً تستقي من نبع واحد ، غير أن شرائع الأنبياء متفرقة ، يقول الله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » ، فدين الجميع واحد وهو دين الإسلام ، يقول الله : « ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، وقال : « إن الدين عند الله الإسلام » ، وقال : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » . والنبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (نحن معاشر الأنبياء بنو علات الدين واحد والشرائع متفرقة) .

وكل نبي إنما يأتي برسالة متممة ومكملة لرسالة النبي الذي قبله ، قال تعالى مخاطباً أمة محمد : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » (من سورة الشورى) .

ولهذا كان شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم ترد شريعتنا بنسخه .

وقد جاء محمد رسول الله برسالته المهيمنة على جميع ما قبلها ، بحيث لا يسوغ لأحد العمل بغيرها ، لكونه رسولاً إلى جميع الناس : عربهم وعجمهم وحتى اليهود والنصارى « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » وقال : « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » (من سورة الأعراف) . فبما أنه خاتم النبيين لا نبي بعده ، فإن شريعته هي خاتمة الشرائع والمهيمنة عليها . ولما راى النبي – صلى الله عليه وسلم – مع عمر قطعة

من التوراه قال له لقد جئتكم بهـــا بيضاء نقية ليلها لنهارها لايزيغ عنها بعدي الاهالك ولو كان أخي موسى حيا ماوسعه الاتباعي .

والقرآن حين يعرض قصص الأنبياء وبني إسرائيل وغيرهم ، نراه يأخذ مواد القصص من أحداث التاريخ فيعرضها عرضاً أدبياً ويسوقها سوقاً عاطفياً يبين المعاني ويؤيد الأغراض والأحكام وأمور الحلال والحرام ، ويخرج بها من الدائرة التاريخية إلى الدائرة الدينية . ومن هذا الاتجاه الذي يقصده القرآن في أسلوب قصصه التي تؤثر في القلوب بتأثير بلاغته التي ترجع إلى جمال لفظه وحسن نظمه وسمو معانيه وبلاغته فإن السامع وكذا التالي لن يجد شيئاً من الكتب افصح ولاأجزل ولاأعذب من ألفاظه ، ولن ترى نظماً أحسن تأليفاً ولاأشد تلازماً من نظمه ، وأما المعاني والأحكام فلا خفاء على ذي عقل أنها تشهد لها العقول السليمة بالتقبل والتقدم في أبوابها والترقي بها إلى أعلى درجات الفضل والكمال « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم . يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » . (من سورة المائدة) .

فصـــل فى تسمية النصارى بالمسيحيين

إن تسمية النصارى بالمسيحين هي نظير تسمية اليهود بإسرائيل فهما في البطلان سواء ، فإن النصارى وإن تشدقوا بأنهم أتباع المسيح لكنهم بالحقيقة أعداؤه المخالفون لأمره والمرتكبون لنهيه ، قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل . فلا يجوز متابعتهم على تسميتهم الكاذبة الخاطئة التي لم يثبت لها أصل في الكتاب ولا في السنة ولا عن الصحابة ، ولم يكونوا معروفين بهذه التسمية لدى كافة المؤرخين المتقدمين .

لو كان حبك صادقاً لأطعتَــه إن المحب لمــن يحب مطيـــع

« وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » وأحمد هو من أسماء الرسول ، لكون الخلق يحمدونه يوم القيامة ، كما أن اسمه محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ، لكنهم حذفوها من جملة ما حذفوه حسداً له وللعرب ، يقول الله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » ، فهذه الجملة هي مما أخفوه ، كما قال – سبحانه – : « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » وهذه الآية هي من الشيء الكثير الذي أخفوه . ومثله ما روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : إنا لنجد صفة محمد في التوراة إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وحرزاً للمؤمنين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، بأن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ويفتح الله به أعيناً عميا وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً .

ولما سئل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن بداية نبوته قال : (دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي آمنة) .

وقد أنزل الله الإنجيل على نبيه المسيح كالمتمم لما قبله من التوراة المشتملة على الشرائع والأحكام وأمور الحلال والحرام ، يقول الله : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » ، وقد حصل فيها من الحذف والتغيير فيها بما استباح فعله القسيسون الذين يغيرون من شريعة الرب ما يشاءون ويشتهون ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

وقد صنف شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – كتابه « الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح » وذكر فيه أن النصارى بدلوا دين المسيح وغيروه عن حقيقته وكفروا بما جاء به من الحق ، يقول الله : « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » وكذلك يقال إن أولى الناس بالمسيح للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا به . وفي الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، لأنه ليس بيني وبينه نبي » وكما أن اليهود كذبوه وآذوه وضربوه وصلبوه بزعمهم « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ، فهم يزعمون بأنه غير المسيح المبشر به في التوراة ورموا أمّه بالعظائم والمفتريات ، أعلى الله قدرها عما يقولون علواً كبيراً ، وقال تعالى : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

فهدى الله المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فآمنوا به وصدقوه واتبعوا النور الذي أنزل معه وجعلوه كسائر الرسل عبداً لا يُعبَد ورسولا لا يكذب ، بل يطاع ويتبع – صلوات الله عليه وعلى نبينا محمد وسائر النبيين –

أجمعين – وقد أمر الله المؤمنين بأن يقولوا : « آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحـــاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

إن المسيح – عليه السلام – لم يأمر أتباعه من الحواريين وغيرهم بأن يجعلوه رباً أو ابناً لله أو يجعلوه ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة ، ولم يقل بحلول اللاهوت في ذاته المقدسة كما يقول النصارى بحلول اللاهوت في الناسوت ، وامتزاجه كامتزاج الماء باللبن ، فمتى دعوت المسيح فقد دعوت الله أو دعوت الله فقد دعوت المسيح ، وقال – سبحانه – : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا » ، « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم » .

وقال – سبحانه – : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار» . «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » . وروى البخارى ومسلم عن عبادة بن الصامت أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار

حتى أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)

ضل النصارى في المسيح وأقسموا   لا يهتدون إلى الرشاد سبيلا
جعلوا الثلاثة واحداً ولو اهتدوا   لم يجعلوا العدد الكثير قليلا
وإذا أراد الله فتنة معشر   وأضلهم رأوا القبيح جميلا

والمقصود أنه لم يثبت في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ولا من قول الصحابة تسمية النصارى بالمسيحيين ، وإنما سماهم الله النصارى ، فقال – سبحانه – : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق » « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب » ، « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » ، وقال : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً » ، في كثير من الآيات يرسم فيها اسمهم الذي هو بمثابة السيماء لهم ، فهذا هو اسمهم الحقيقي لا الاسم المبدّل الذي قصدوا به بأنهم أتباع المسيح أو أنهم أولياؤه « وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكنّ أكثرهم لا يعلمون » .

وتسميتهم بالمسيحيين إنما حدثت من عهد قريب ، بحيث لم يكن لها أصل في اللغة ولا في التاريخ كحدوث تسمية اليهود بإسرائيل وكلتاهما بدع من القول وزورا .

إن القرآن الحكيم مملوء من ذكر البينات والبراهين الدالة على صدق أنبيائه موسى وعيسى وسائر الأنبياء وخاتمهم محمد صلى الله عليهم أجمعين مما يدل على وجوب تصديقهم فيما جاءوا به ويستدعي قبول الناس وإقبالهم إليهم والإيمان بهم وبكتبهم النازلة عليهم . . غير أن النصارى بموجب إصرارهم على التكذيب بنبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – وبالقرآن النازل عليه ، فإن تكذيبهم به مستلزم لتكذيبهم بنبوة موسى وعيسى وسائر الأنبياء فإن من كذب نبياً فإنه يعتبر بأنه مكذب لسائر الأنبياء وكافر بالله – عز وجل – وبما

أرسل الله به رسله . يقول : «كذبت قوم نوح المرسلين» . «كذبت عاد المرسلين». «كذبت ثمود المرسلين» ، فإن التكذيب بنبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – وبالقرآن النازل عليه وزعمهم بأنه شيء فاض على نفس محمد بدون أن يوحى الله به إليه أو ينزل به جبريل عليه فكل هذا يعتبر بأنه تكذيب لمحمد وبسائر الأنبياء قبله ، ومن لوازمه التكذيب بالمسيح عيسى بن مريم – عليه الصلاة والسلام ثم التكذيب بمعجزاته التي أثبتها القرآن الحكيم .

إن القرآن هو المعجزة الخالدة لنبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – والمصدق لسائر الأنبياء قبله ولسائر الكتب النازلة عليهم من الله . . والعجب من عقلاء النصارى المستقلة أفكارهم والذين برعوا في الذكاء والفطنة وعرفوا اللغة العربية ، كيف يصرّون ويستكبرون على التكذيب بنبوة محمد والتكذيب بالقرآن النازل عليه تقليداً منهم للمكذبين من القسيسين والمبشرين . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً .

وموضع العجب منهم هو أن القرآن النازل على محمد – عليه الصلاة والسلام – كله نضال في الجهاد والجدال عن نبوة عيسى بن مريم – عليه الصلاة والسلام – يحقق صدق نبوته وكرامة نشأته وطهارة مولده وبراءة أمّه مريم البتول – عليها السلام – ويثبت بأن الله – سبحانه – خلق المسيح عيسى بن مريم بيد القدرة من أم بلا أب ، كما خلق آدم من تراب ، ثم قال له : كن فكان . وأن الله أيّده بالمعجزات الباهرات الدالة على صدق نبوته ، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، وينبئ الناس بما يأكلون وما يدخرونه في بيوتهم مع تكليمه في المهد وقوله : « إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

فكل هذه المزايا من الصفات والمعجزات قد أثبتها القرآن وآمن بها المسلمون ، ومن كذب بها فإنه كافر ولا توجد هذه الصفات وهذه المعجزات بالإنجيل الذي بأيدي النصارى لأن الله ذكر في كتابه المبين بأن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون .

على أن الإنجيل الموجود الآن ليس هو الإنجيل النازل على المسيح عيسى بن مريم — عليه السلام — وإنما هو مبدّل منه وفيه التحريف الكثير والكذب على الله وعلى الأنبياء . « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني » (من سورة المائدة) .

ومثله معجزات موسى ومعجزات داود وسليمان ، فقد أثبتها القرآن الكريم ومن كذب بها فإنه كافر وقد امتنع نزول الآيات بعد عيسى ، يقول الله : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » ، وكل معجزات الأنبياء زالت بزوالهم ولم يبق إلا الإيمان بها في جملة الإيمان بالغيب ، وفي الصحيحين أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : (ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن به البشر ، وأن المعجزة التي أوتيتها هو هذا القرآن ، وإني أرجو أن أكون أكثرهم تبعاً) . فهذا القرآن هو الآية الخالدة المشاهدة إلى يوم القيامة وهو معجزة الدهور وسفر السعادة ودستور العدالة وقانون الفريضة والفضيلة محفوظ في المصاحف وفي الصدور ، بحيث لا يستطيع أحد أن يُقحم فيه حرفاً أو يحذف منه حرفاً ، لأن الله — سبحانه — تولى حفظه فقال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . أما سائر الكتب المقدسة فقد وكل حفظها إلى أهلها فضيعوها كما قال — سبحانه — : « وأنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » .

والقرآن هو أساس دين الإسلام مع سنة محمد – عليه الصلاة والسلام – وإنه لولا هذا القرآن لكذب الناس بنبوة عيسى بن مريم وبمعجزاته كما كذب بها اليهود وغيرهم ورموا أمّه بالمفتريات – أعلى الله قدرها – عما يقولون علواً كبيراً .

أفيجازى محمد رسول الله الذي جاهد أشد الجهاد في الدفاع عن عيسى ابن مريم بأن يقابل شكره بتكذيبه والتكذيب بالقرآن النازل عليه مع العلم أنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، وليس في بلده مدارس ولا كتب . يقول الله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » .

إن الله – سبحانه – ختم الرسل بنبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – فقال : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ، كما ختم الشرائع بشريعته الشاملة الكاملة الصالحة لكل زمان ومكان ، قد نظمت حياة الناس أحسن نظام بالحكمة والمصلحة والعدل والإتقان ، فلو أن الناس آمنوا بتعاليمها وانقادوا لحكمها وتنظيمها ووقفوا عند حدودها ومراسيمها لصاروا بها سعداء . لأنها تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . فلا يجوز لأحد أن يتعبد بغير شريعته ، لأن الله – سبحانه – أرسله إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فكما أنه رسول للمسلمين فإنه رسول لليهود والنصارى وسائر الأمم أجمعين في مشارق الأرض ومغاربها . يقول الله : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » . وقال – سبحانه – : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ، وقال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، أي للخلق أجمعين . وقد أثنى الله – سبحانه – على الذين يتبعون الرسول النبي الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه

ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » . وفي الصحيح أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (إن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري ، فهو رحمة من الله مهداة لجميع خلقه .

إن أكبر صارف يصرف علماء النصارى وعامتهم عن اعتناق دين الإسلام واعتقاده وعن التصديق بنبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – وبالقرآن النازل عليه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . هو أنهم تأثروا بتنفير القسيسين والمبشرين عن دين الإسلام بكثرة كذبهم وافترائهم على رسول الله – عليه الصلاة والسلام – فهم يتلقفون هذا التكذيب مما جعلهم يتأثرون به ويتربون في حالة صغرهم على اعتقاده حتى أشْرِبَت به قلوبهم وحتى صار لهم طريقة وعقيدة . مع العلم أنهم قد بقوا حيارى ليس لهم دين يعصمهم ولا شريعة تنظمهم . .

والأمر الثاني : هو أن تكذيب أكثر أذكيائهم والمفكرين منهم إنما نشأ عن عدم معرفتهم باللغة العربية التي هي لغة الإسلام والتي يعرف بها بلاغة القرآن ، لكون القرآن نزل بلسان عربي مبين ، فبلاغته بلغته ومعرفة أحكامه وحكمته وعموم هدايته ومنفعته وذوق حلاوته ، كل هذا إنما يدرك عن طريق لغته ، فعدم معرفة الأمم للغة العربية التي نزل بها القرآن هو أكثف حجاب يحول بينهم وبين اعتناق الإسلام واعتقاده والتصديق بمحمد رسول الله وبالقرآن النازل عليه . أما ترجمة القرآن الموجودة بأيدي الناس ، وقد ترجم عدد تراجم وكلها ليست بقرآن وتبعد جداً عن بلاغة القرآن فلا تسمى قرآناً ، لكنه يستعان بها على فهم القرآن ومعرفة أحكام شريعة الإسلام . لهذا يجب على كل عاقل أن يتعلم اللغة العربية التي يعرف بها أحكام دينه ويستعين بها على أمور دنياه . يقول الله : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر » ، أي هل من طالب علم فيعان عليه والله أعلم .

حرر في ٨ رجب ١٣٩٨ هـ .

فهرس

مطابع قطر الوطنية

الدوحة - قطر ص.ب ٣٥٥